سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (53)

ديوان

عبد الحق بن إسماعيل البادسي

(كان حيا عام: 722 هـ)

بسم الله الرحمان الرحيم

قال رحمه الله:

ظهرت محاسنه ولاح كماله وزكت ببر في التقى أفعاله

في المجد أبدى السعي ناصر سنة فيها تتابع دائما أعماله

فالرشد حليته وغاية قصده قرب تنال به رضى آماله

في العالم العلوي راية فخره نشرت فعم الخافقين كماله

جارى الجياد السابقات فبزها بفرية من فوقها اسحاله

وارى الخليفة آية من برء ما عز الطبيب فناله اخماله

رفع الوجود فعمه من وجده بشر تلألأ حسنه وجماله

غنى وقد غسق الدجى لما سرى ركب الحبيب وارقت اجماله

نصبت له أسماؤه وصفاته شركا فصيد به المحب وماله

ألف التصور والتطور وهو في طور المعارف واحد متوحد

طورا يرى أسدا وطورا طائرا ومتى تراه الشكل فهو الواحد

خرق العوائد للولي مقرر عند اللبيب وقد أباه الملحد

قامت قيامته فألحده التقى في لحد نسك لايراه الملحد

بدر بدا والليل ساج فاهتدى بسناه في البيداء ساري الغيهب

أهدى الهدى لمن اقتدى فجرى على ما راق من سنن قويم المذهب

ما ارتاح من غلوائه متبخترا زهوا ينير بمتن طرف أشهب

كلا ولا ركب الهوى جملا ولا والى عداء في تصيد قرهب

ما كسبه إلا المعارف تجتلي دررا ولكن لا كدر منهب

لقد هاجروا الأوطان يرجون وصله فماتوا بقفر لا يحس بهم خلق

تواصوا بأعداد المسير فأوجفت خيولهم الغر المسومة البلق

شمائلهم تسقي شمول مواهب ووجه رضاهم في تصرفهم طلق

لقد تاهت الدنيا بحسن جمالهم وطار لهم ذكر وطاب لهم خلق

جد الفتى في السعي طالب غاية   فأتاه ما يرجوه طوع عنانه

جعل التقى زادا وأم منازلا   ملئت برحمى ربه وحنانه

و الى تلاوة محكم فتفجرت   حكم العلوم بصدره وجنانه

وأبر في معنى التقشف مظهرا   فيه نما المطعوم سر بنانه

ان جاءه أحد يروم قتاله   قام الدعاء له مقام سنانه

كسي المهابة والجلالة فانثني   والأسد لاجئة الى أكنانه

ما انفك في رفض الهوى مترقيا   فوق الهواء مصاعدا لعنانه

إذا وضح النهار فهل مزيد عليه لطالب نورا مبينا

غنينا عن مطالعة المعاني لعرفان به قدما حببنا

وما زالت سماء الخير قدما تخص بالمعالي الراغبينا

فأهل الحق قد فازوا وحازوا محامد لاتنوء الطالبينا

الأنس بالله العظيم وذكره مما يزيد اولي التقى ايمانا

من كان نور الحق أيده غدا ولهان من شغف به هيمانا

سر الحقيقة لا يفوز بنيله غير امرئ متسربل كتمانا

سعد الذي جعل التبتل دائما للمقتني من صالح اثمانا

لايحرز الفضل المبين سوى الذي ملك العلوم مطهرا جثمانا

وإذا تآلف للتقى علم فقد سأوى من الزيغ المخوف أمانا

نظمت يداه من الرشاد بجيده شذرا تزين بالرضى وجمانا

زهدوا يريدون النجاة فأصبحوا وطعامهم في الأرض نبت يابس

وتسربلوا فيها ثياب مجاهد وكما عليهم للرشاد ملابس

مالوا عن الشهوات في الدنيا فما لهم سوى التوفيق شيء حابس

يا قابسا من نورهم عزما الى ما تبتغيه فأنت نعم القابس

فجنانهم من كل سهو سالم ولسانهم عن كل عيب نابس

علم اليقين أنالهم ما أملوا فرأوا به عين اليقين وحقه

سلبوا فغابوا عن وجود نفوسهم فوجودهم محق يلازم محقه

لم يعرفوا هجرا ولا وصلا ولا معنى يبين قربه أو سحقه

فكأنما أنفاسهم ونفوسهم شيء تداولت الأيدي سحقه

وكأنما أسرارهم بقلوبهم در بعقد لا يفارق حقه

يامن يشاهد في الوجود عجائبا هلا حثثت الى الكرام نجائبا

وشهدتهم فيما اختفى من حالهم يبدون شرا كان عنا غائبا

طلبت لهم شمس الحقيقة في سماء وات الانابة والهداية دائبا

فهم اذا ما مال حائط كنزهم جعلوا له صدق اليقين رجائبا

قوم مشو فوق المياه وصيروا من تحتهم متن الهواء ركائبا

هم للثرى غيث وغوث للورى بالبشر لاقوا من رأوه تائبا

ان شئت فوزا بالنجاح فزرهم ما آب عنهم من رآهم خائبا

إن المكارم لا تزال عتيدة لمجاهد سلك الطريق موفقا

خفقت له رايات كل فضيحة وهواه حاد عن الطريق فأخفقا

ياسعد من لاحت له غرر الهدى فسرى وأسرى غيره واستوفقا

وهمي به غيث تصوب صيبا فسقى واسقى عاطشا وترفقا

لله من سر سرى في غيره آوى محبا عنده فترفقا

من كان لله العظيم مطيعا   أضحى به نور الرشاد سطيعا

وأتته وحش البيد من غاباتها   تبغي رضاه فريدة وقطيعا

فاقبس أخي من نورهم تلق الهدى   وتكن حبيبا للإله مطيعا

من سره طيب الحياة فلا يزل يقري ويقري دائما ويجود

وصف الولي تطلق وتعطف وتوحد وتهجد وسجود

ان عز جود في الولي فانه في كل عبد مخلص موجود

فنجومه بالصالحات طوالع ورياضه بالمكرمات تجود

ألقت إليك المكرمات زمامها   ورعى بحق الله ثم ذمامها

ألقيت إليه المكرمات زمامها   نعمى تولى الله منه تمامها

يازهرة سقيت بمزن حكمة   في روضة فتق الرشاد كمامها

طابت وطاب نباتها فنماؤها   يحي بظل يستمد غمامها

ياحسنها وجمالها وكمالها   وبهاءها وضياءها وتمامها

لم تدر أغصان لها في روضها   شبها لها لاارندها وثمالها

من ذاق خمرتها استراح فلم يذق   موتا يعالج سقمها وحمامها

ومن استقل بشكرها جارى بها   خيلا تطاول نشوها وجمامها

والبحر يسكن خيفة من ناسك ورث الولاية كابرا عن كابر

أخلاقه مخلوقة من شاكر وطباعه مطبوعة من صابر

وعلومه معلومة وصلاته موصولة بدفاتر ومحابر

شهدت له آياته وأماته بالصدق في ماضي الزمان الغابر

لله در محكم في ماله متهيئ للحادثات مصابر

شمس العلوم يالها من شمس تبدو فتعلو ثم ليس تمسي

يا رائما شبها لها قياسا هيهات ليس اليوم مثل الأمس

للحق سر بالغ يراه من كان خلوا من محاق الطمس

وكل سر غامض فشيء بينه معنى الصلاة الخمس

فعالم الأخرى غدا سعيدا وعالم الدنيا هوى في الرمس

من ظل يبغي رفعة بنقص كان كباغي كوكب بلمس

فذا وذاك في القياس قطعا ضدان ليس البدر شبه الشمس

أهل الحقيقة ان نظرت وجدتهم متسربلين بكل فضل باهر

قهروا نفوسهم ففازوا بالمنى من وجد رب ذي جلال قاهر

وتجوهروا بلطائف فتكللت تيجانهم بزبرجد وجواهر

رتعوا بروض القرب فوق أرائك في ظل إيناس ونفح أزاهر

فهم الذين استأثروا بمحاسن حلت بواطنهم بحسن الظاهر

ظهرت لي الآيات في فلواته   متأنسا بالله في خلواته

وافاه وافد رحمة وكرمة   والاه صب الماء في أدواته

فأعجب لمن أضحى بقفر عاطشا   فرأى زلال الماء في لهواته

أغفى يراقب أن يموت فجاءه   فرج به قد غب من غفواته

فصحا وصح يقينه ولربما   جاء اليقين في نشواته

إني أراك حجبتني ومنعتني   من كل باغ ظالم ومحارب

وجعلت لي معنى التقى وزرا وما   أخشى دسيسة قائل أو ضارب

صيرت من رام اغتيالي شاويا   من سم موت في المهامه سارب

أنا ما أقوم بشكر ما أوليتني   من نعمة قامت بحفظ مآربي

شكرا لأنعمك الجسيمة إنها   غوث الطريد وأمن خوف الهارب

طلعت لي الحسنى بأفق مشارق   فهوى الهوى عني بأفق مغارب

كنا نؤمل زورة من طبعه ليلا فأنعم بالمزار نهارا

طارت به أشواقه متعاليا فأتى وقد ركب السحاب جهارا

فكأنها تسري به في أفقها فرس تسابق في الطراد مهارا

نم النسيم بعرفه فكأنه طل يلاقي في الرياض بهارا

لو انه لمس الصفا بيمينه أبدى لنا ذلك الصفا أنهارا

العالم الأتقى له شرف فما ينفك في الدنيا رفيع مكان

ربحت تجارته فراح مخولا من مال دائم الامكان

رسخت قواعد علمه فاستحكمت بالرشد قائمة على أركان

فكأن ما يهدي الى أهل التقى من علمه ويقينه ملكان

من كان ذا فلك يدور بحكمة فله بأفق سمائنا فلكان

ما السر في مغنى ولكن ان ترد معنى يفوق السر في السكان

رامو به كيدا فأبطل كيدهم صدق أراه الستر حصنا مانعا

سقيت مغارسه فأثمرت المنى اذ كان منه الغصن غصنا يانعا

وأتاه لما كان مخلص نية حفظ من الآفات ظل ممانعا

أبدى له إخلاصه وصفاؤه عند الأنام من الكمال مصانعا

ما كان ذا بغي ولا كيد ولا والى صنيعا بالرياء مصانعا

ما زال يرعى حق رب لم يزل أبدا لما قد شا فتينا صانعا

أبدى له نعت الجمال جلالا فرأى به قتل النفوس حلالا

لحظ الحبيب في قلبه في غيبه فأناله ما لا يطاق جلالا

حسنت خلائقه لحسن حبيبه فزكت شمائله حلى وخلالا

وكساه في خلواته من نوره فسرى بليل لا يخاف ضلالا

رفض الوجود وأهله فهم إذا ما عاينوه عنوا له إجلالا

ومتى أراد غنيهم من وصله نيلا تعاظم نخوة ودلالا

ذاق الحياة بقربه فهمي على أوصاله ماء الحياة زلالا

يعطي الفقير سماحة وسجاحة ويرى الغني عقاربا وصلالا

وإذا سقيم الفقر أعضل داؤه تألمت مقاصده به إبلالا

هجر المواطن كي يفوز بخلوة   فرأى بها أنسا تألف سربه

وصفت مشاربه ولذ طعامه   ومن المعارف سار محضا شربه

جعل التغرب للتقرب وصله   لما تناهى في التداني قربه

ألف التذلل دهره متسترا   فجزاه بالحسنى الجميلة ربه

نعم الحليف لكل مجد باهر   ما انفك يخطبه العلاء وتربه

فهم المراد من الحياة فسره   أم سار مرقده الصعيد وتربه

لم يدر حربا غير قتل غواته   وهوى يقود فذاك دأبا حربه

بز الجياد مغاربنا ورعالا وسمت به أشواقه فتعالى

جعل النجوم جواهرا لحبيبه (ومن) الهواء لأخمصيه نعالا

ولربما طويت له البيدا التي ضمت رئالا بدنا وسعالا

تلقاه في كل المواطن مخلصا لله فيما يرتضي أفعالا

هانت عليه نفسه فأهانها   كي يستفيد من الحظوظ رهانا

ان قام ذو غر يجرر ذيله   فخرا بنفس كان ذاك مهانها

طرح التصنع والرياء فلم يدع   للنفس شيئا يستديم دهانها

ترك العقول حبيسة بعقالها   فقدت لفقد نقودها أذهانها

واعتز بالحظ الجزيل من التقى   يبدي لزاهي نفسه ايهانها

وقف المحقق وقفة فبدت له صور المعارف في جمال بارع

نادى وقد طارت به أشواقه يانفس بادر للسمو وسارع

وردت به أوراده في سيره أزكى مقاصد مورد ومشارع

ان ناله أو غاله من حبه سقم فليس الى سواه بضارع

ما انفك يفنى عن فناء فنائه فيظل مصروعا بهيأة صارع

فهو المنازل كل شوق قاتل وهو المقاتل كل وجد دارع

جالت به أنفاسه في معرك بين اشتباك مهالك ومصارع

وحقيقة التقوى الوقوف ببابه متبرئا في الكون من أسبابه

مستمطرا من لطفه ونواله ما لا يطيق الجو حمل ربابه

وإذا استكن أخو النعيم بقنة قام القضاء له مقام فنائه

فهناك يظفر بالوصال وطيبه وينال ما يرجوه من أحبابه

علم الكلام شعاره ولباسه والرشد في ظلم الهوى مقباسه

نور الهداية والهدى حبس على من زاره ياحبذا أحباسه

لاحت بطور الفضل نار علومه نورا به نال المنى قباسه

فيه تطرز كل مجد أفخر وبه تنمنم زيه ولباسه

يهدي ويردي ان تتابع عند من يبغي التعلم نفعه أو بأسه

ما انفك يخلع مشفقا أثوابه يرجو من الله العظيم ثوابه

صابت يداه بما اقتفى من صيب لما تيقن رشده وصوابه

طالت إقامته بباب سؤاله يدعو ويرغب ان يرد جوابه

راياه خاتم رسله ورفيقه جعلت له من سندس أثوابه

فغدا ورضوان الجنان مفتح لما غدا لقدومه أبوابه

من صدقه ظهرت له الآيات وجرى فلم تلحق له غايات

حسن الصفات عن النجابة معرب ينبي عن الغر الجياد شيات

والصبح لا يخفى اذا لاحت له عند استداد دجنه رايات

خرق العوائد للولي مشاهد عند اللبيب له سنى وآيات

فغناؤه في العالمين وجوده   ومماته فيهم غنى وحياة

من كان يعشق ماله وبنيه   فجمالهم في قبره حيات

هامت به الأشياء حتى النحل لو مازج الثرى لكان يحلو

أو حل في أرض ثواها محل حط به للغيث فيها رحل

ولو سرى والليل تعس محل عاد وذاك التعس منه سجل

كتاب الله في الدنيا جمال وفي الأخرى شفيع في الخلاص

فحامله له منه دروع اذا خانت مضاعفة الدلاص

وراكب هديه في الأمن غاد غنيا عن مراكبة القلاص

حفظ الاله يخص عبدا مخلصا   قد صار ظل مراده متقلصا

خلصت سرائره فخلصه التقى   الله ذلك مخلصا ومخلصا

أعظم به وبقدره وبشأنه   من قانت قصد الانابة مخلصا

أبدى لمنتقد وناقد بهرج   ذهبا نضارا في الحقيقة مخلصا

العلم قائده ونعم القائد وخواطر الأسرار منه رائد

ظهرت له في المكرمات دلائل وبدت له عند الأنام فوائد

قرنت الى أقواله أحواله فسما لها في الوصف معنى زائد

فمناقب ومحامد وضرائب وفضائل ومآثر وعوائد

ولهم بدار الخلد أكرم منزل فيه تدور بهم هناك ولائد

تسديده في الحكم أوجب رعيه وفرأى بهجته المغيب حاضرا

وكذلك الرؤيا ترى من بادها غصن الكرامة ذا أزاهر ناضرا

ان عن زور أو تردد زائر لدا رأيت له السداد محاضرا

الليل جلده ونور النسك في أسراره مثل الصباح المسفر

خلق وخلق جمعا من شخصه في طينة المسك العتيق الأذفر

تأوي إليه الوحش في خلواته بكناس زهد لا بظبي أعفر

مهما أذم بذمة دامت على مر الزمان وكره لم تخفر

بحر المعارف قد طفت من فوقه درر تروق الناظر المتوسما

جذلان يلقى كل طالب حاجة مستبشرا بلقائه مستبسما

طابت له أوقاته فتجمعت جمعا وصارت للمواسم موسما

والأنسه بالطور آنس ناره نورا على أهل السعادة قسما

ألف العبادة فاستلذ وصالها   يبغي الفضائل فاستتم خصالها

لاقى من الأبطال في ميدانها   أسدا تهاب الأسد فيه نصالها

ألقى عليه من التقى فضفاضة   فلت سهام وطانها ونصالها

أوقاته معمورة بتلاوة   آناءها أبكارها آصالها

لله من لزم الارادة مجملا   تحصيلها مستكملا إيصالها

أوصى بارك مقامه ومقاله   لذوي الرياضة عندما أوصى لها

كانت ذوات المكرمات لفقره   قطعا تألف محسنا أوصالها

حسن التوكل في القفار أناله حالا بها قد سره ما ناله

جعل السبيل له المهيمن في الفلا سببا يخفف في الخلاص مقاله

من شاهد الحق المبين فزاده اجلاله عزا فذاك عقاله

ظهرت مقاصده بنيل مراده بعد امتداد جهاده وطراده

شهدت شواهد حاله بوصوله وبصدق رائده وحسن مراده

شرط الولاية واردات تجتلي من مخلص والى اقتنا أوراده

فانظر الى من كان فيها محسنا في صدره عنها وفي ايراده

فهو الخليق بها ووارث فضلها والمستغل بها اقتضاء مراده

ان الطريق المرتضى لذوي التقى فيه الهدى وقف على افراده

رفضوا نعيما في الوجود تنزها وسراهم في غيره وخواده

ورث التصرف من ولي مرتضى فيما قضاه من الحقوق وما اقتضى

شهرت يداه على العنيد لوامعا ما زال صارمها الشهير المنتضى

هو الغياث لدفع كل ملمة نابت فنعم المستغاث المرتضى

سعد الذي فهم المعاني موضحا منها دليل المقتضي والمقتضى

قد سره من حاله في حاله ما ناله لما أحب وما ارتضى

سقي المدام فدام ثاني عطفه   عن وجده يرجو تبرع عطفه

رقت فراقت في زجاجة قلبه   بسنى ينافي البرق حالة خطفه

لما تلطف في السؤال تواضعا   أعطاه ما قد شاءه من لطفه

وأحله روض المعارف قاطفا   زهرا جنيا لا يهاج بقطفه

بشرى نديم يستدام وصاله   أثنى هواه على ثني عطفه

علم الاله الصدق من أحواله فأجابه عند انتهاء سؤاله

وامده بالغيث يجري سيبه في سبسب قد خيف من أهواله

فطفت بأعلا البئر ركوته على قدر أتاه به دعا أقواله

فأعجب فليس بمدرك ذا منفق قد حاز ملء الأرض من أمواله